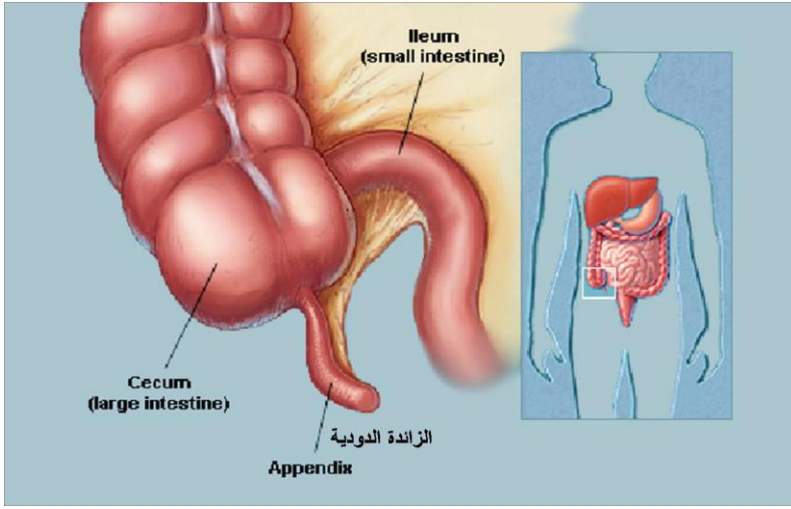


التقدير الرشيد بيئة على التوحيد

في عام ١٨٥٩ نشر تشارلز دارون Charles Darwin كتابه: أصل الأنواع Origin of Species؛ وفيه أن الإنسان ثمرة سلسلة طويلة من التطور Evolution بدأت بنشأة كائنات بسيطة في البحار الأولية، فخالف معتقد الكنيسة وفقاً للأسفار من نشأة الإنسان الأول مباشرة من التراب والماء بلا تمهل ولا أطوار وفقده لأحد أضلاعه كي تنشأ منه زوجته؛ في سفر التكوين (إصحاح ٢ فقرة ٧): "وَجَبَلَ الرَّبُّ الإلهَ آدَمَ تَرَابًا مِنَ الْأَرْضِ وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةً حَيَاةٍ فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً"، وفي سفر التكوين (ح ٣ ف ٢١ و ٢٢): "فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإلهَ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَاتَهَا لَحْمًا، وَبَنَى الرَّبُّ الإلهُ الصِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ"، فرفضت الكنيسة نشأة الإنسان في أطوار؛ وإلا شككت في التدوين.



وفي عام ١٨٧١ نشر دارون كتابه الثاني مؤكداً أن الإنسان متحدر من أسلاف حيوانية أسبق بعنوان: تحدر الإنسان The Descent of Man؛ أي كسلالة، وافترض أيضاً وجود تراكيب كان لها وظيفة في الأسلاف Ancestors ولم تُعرف وظيفتها في الإنسان فسُمُّوا بالأعضاء الضامرة Vestigial Organs أو الأثرية Rudimentary؛ منها الزائدة الدودية Appendix والعصص Coccyx والغدة الصنوبرية Pineal gland، فلم يكن معروفاً بعد أن الزائدة الدودية عضو في الجهاز المناعي أول الأمعاء الغليظة يحميها من العدوى؛

ومثلها اللوزتين Tonsils أول الزور، وأن العصص يقوم بتثبيت بعض عضلات المقعدة، ولم يكن معروفاً كذلك بعد أن الغدة الصنوبرية هي إحدى الغدد الصماء التي تفرز هرمون الميلاتونين Melatonin استجابة للضوء فتتظم الإيقاعات الحيوية بالجسم كدورات النوم والاستيقاظ، وتنشأ دارون بالمثل بوجود أعضاء ناشئة Nascent organs بهيئة بسيطة في الأحياء الأدنى في سلم التطور اكتملت في الإنسان الأرقى نوعاً، ولكن لم يثبت لها وجود؛ كما لم تثبت نبوءته في وجود بقايا متحجرة Fossils لحيوانات قد اندثرت تمثل الحلقات الوسيطة في سلم التطور، وفي عام 1895 بلغ ما أحصاه عالم التشريح الألماني روبرت ويدرشيم Robert Weidersheim ١٨٦ عضواً أثرياً، واليوم قد استنفذت كل لائحة الأعضاء الأثرية المفترضة وعرفت وظيفة كل تركيب وفقدت الداروينية ركانزها الأساسية، فمن المخجل حالياً الإدعاء بأن الغدة الصغرية Thymus gland زائدة ضامرة بلا وظيفة، والمعلوم حالياً أنها العضو الأهم في جهاز المناعة وإنضاج الخلايا اللمفاوية Lymphocytes، وهي تقع أسفل الرقبة وتقوم بنشاطها في الحماية من العدوى بالكائنات الدقيقة الدخيلة خاصة أثناء الطفولة؛ وإذا أزيلت مبكراً فشل تطور جهاز المناعة، وقد افترض أن الغشاء الرامش Nictitating membrane (الجفن الثالث) في الحيوان بقي أثره بطرف عين الإنسان بهيئة طية Plica؛ لكنها تقوم بتيسير حركة العين وترطيبها، وليست حلقة ثدي الذكر سوى أثر يشهد بوحدة أصل الزوجين منذ مرحلة عدم التمييز الجنسي للأجنة Gender indifferent stage، ولم تعد البقايا الضامرة مستنداً؛ كعضلات الأذن وهي بطانة واقية، وضرس العقل وهو للطحن، وصمامات الأوردة وهي تمنع رجوع الدم، ناهيك عن الغدة الدرقية Thyroid gland والنخامية Pituitary gland، وهكذا انحسرت لائحة الأعضاء الأثرية المزعومة في الإنسان من ١٨٦ تركيباً عام ١٨٩٥ حتى تلاشت تماماً في القرن العشرين، فكل التراكيب التشريحية في الحيوان والإنسان تؤدي وظيفة ملائمة ومن الغفلة عن الحقيقة الإدعاء بوجود عضو بلا وظيفة، وبالمثل انهار القول بأن تنامي مخ الكائنات دليلاً على التطور؛ وإلا كان إنسان نياندرتال Neanderthal الجد المفترض للإنسان الحالي أكثر تطوراً لأن مخه أكبر، وكان الكلب أكثر تطوراً من الإنسان لأن كفاءة جهاز الشم عنده أفضل.

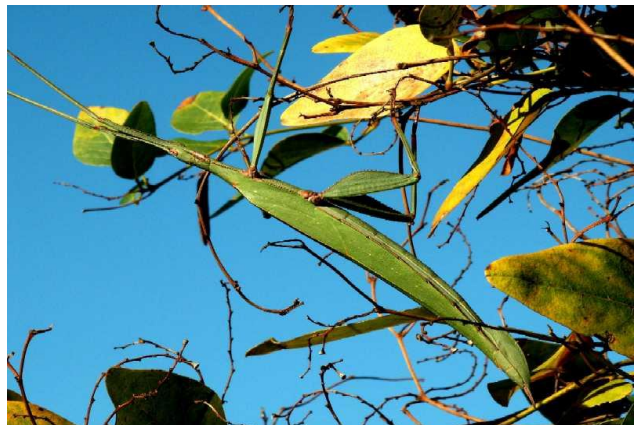
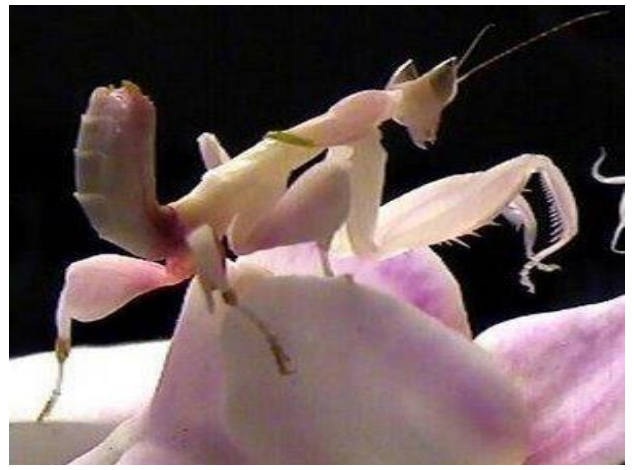
وكل خلية في جسم أي كائن حي قاعدة بيانات حية Living database؛ هكذا كانت الضربة القاصمة لأوهام الداروينية باكتشاف توريث سمات Traits كل نوع حي وفقا لبرنامج مُقدَّر بما يحفظ خصائصه تحمله المورثات Genes، وفي محاولة يانسة افترضت الطفرة Mutation عام ١٩٤١ باسم الدارونية الجديدة New Darwinism بديلا عن افتراض تزايد عنق الزرافة Giraffe مع محاولتها مده نحو الأغصان المرتفعة واستبقاء الطبيعة للزرافات الأطول عنقا وإبادة سواها، ولكن ثبت أن الطفرة لم تأت بكائن أصلح وإنما بمسخ عقيم لأنها تخرب المنظومة السوية للمورثات في الحامض النووي DNA، وكشف علم التشريح المقارن أن الأنواع Species التي يفترض أنها تطورت ببطء من بعضها البعض تتسم بسمات عضوية بعيدة الاختلاف مما يستبعد الانتقال التدريجي، ولذا استبدل بفرضية التطور بقفزات كبيرة متفرقة في بداية السبعينيات، فاقترح بعضهم مثلا أن أول طائر خرج من بيضة إحدى الزواحف كطفرة هائلة؛ أي نتيجة صدفة ضخمة حدثت في التركيب الجيني، ولكن الطفرات لا تؤدي سوى إلى تلف المعلومات الوراثية ومن ثم فإن الطفرات الكبيرة لن ينتج عنها إلا تلفيات كبيرة، ولو صح جدلا الانتقال التدريجي أو الفجائي في نشأة منظومة الأحياء فلن يكون ذلك مصادفة؛ بل كعمليات خلق مُقدَّر رشيد.

وكل الآليات المفترضة لتفسير التطور الذاتي العشوائي كالطفرة والانتخاب الطبيعي تقف عاجزةً مشدوهةً أمام حشرات مُوهَّلةً بذكاء للتخفي عن الأعداء بهيئة أزهار يانعة أو أغصان ذابلة أو أوراق شجر خضراء، فهل حرمت الصدفة سواها من الحيل فبادت ووهبتها وحدها الخداع فسادت، أم هل ألبستها طفرة عابرة تلك الحيل البديعة لتبدو كزهرة وغصن وورقة شجر شكلا ولونا ولم تهمل حتى العروق واللطع والتجاعيد؛ أم أن تلك النوابع تقمصت بهيئات استوحتها بدهاء!، أم أنها مصنوعة لتتنطق بالتدبير والتوجيه بحكمة منذ الابتداء؛ وأن عناية الله تعالى الذي أحسن كل شيء خلقه تتجلى ساطعةً أمام كل فطين!.



كيف يمكن للانتخاب العشوائي أو الطفرات أن تبديع بالمصادفة بلا سبق تقدير رشيد كائنات تتخفى من الأعداء بدهاء بهيئة ولون ورقة شجر أو زهرة أو غصن، ولم تهمل حتى العروق واللطع والتجاعيد!.



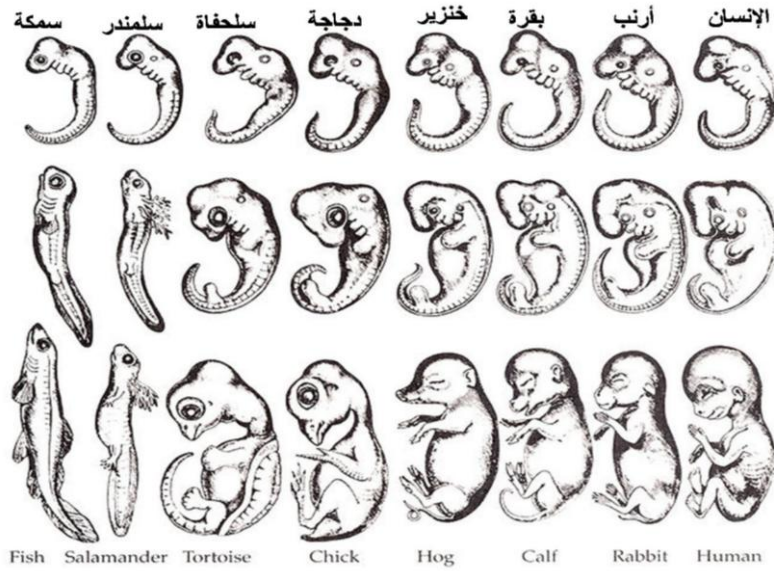


وكيف تفسر وجود النباتات آكلة اللحوم Meat-eating (Carnivorous) plants، فأى ذكاء لها حتى تبلغ بها الحيلة صنع مصائد للحشرات من ورقة أو زهرة وتجذب الفرائس وتصيدها وتذيقها بعصارات سابقة التجهيز لتسد حاجتها للبروتين بلا علم منها بالكيمياء العضوية ولا إدراك بوجود الحشرات؛ فمن أمدّها بالحيل الباردة!، ولم يكن الخفاش Bat على علم بتقنية السونار حتى يصنع لنفسه جهازا لإرسال واستقبال الموجات فوق الصوتية يُعينه على الطيران في أحلك الليالي وصيد فرائسه ويورث حيلته لذريته؛ فمن وهبه البراعة!، وزهرة تتألق لفراشة وتتزيّن وتتعطّر وتتميل في دلال تدعوها لارتشاف حلو الرحيق؛ وما هي إلا حيلة لنقل حبوب اللقاح وحفظ النوع!، وحشرة تخرّ فريسة وتطمرها مع بيضها حتى تجد اليرقات لاحقاً طعاماً طازجاً، فكيف سبقت الحدث!، إن التّبصّر Prevision بالاستعداد الأنسب للحدث قبل وقوعه والسلوك الذكي والكائن غافل؛ لا تُفسّر صدفة وإنما تدبير وتقدير Predestination، والانتخاب الطبيعي Natural selection؛ أي الذي اختارته الطبيعة Nature، تفسير خاطئ ومغالطة لأن كل حي مؤهل جسدياً وموجه وظيفياً ومقدر سلوكياً بما يناسب بيئته ويحفظ وجوده بلا علم منه؛ فكيف تحيك الطبيعة علماً وهي بلا إرادة أو علم!، فهل هي حقاً مهارة الثوب أم حنكة الحانك!.

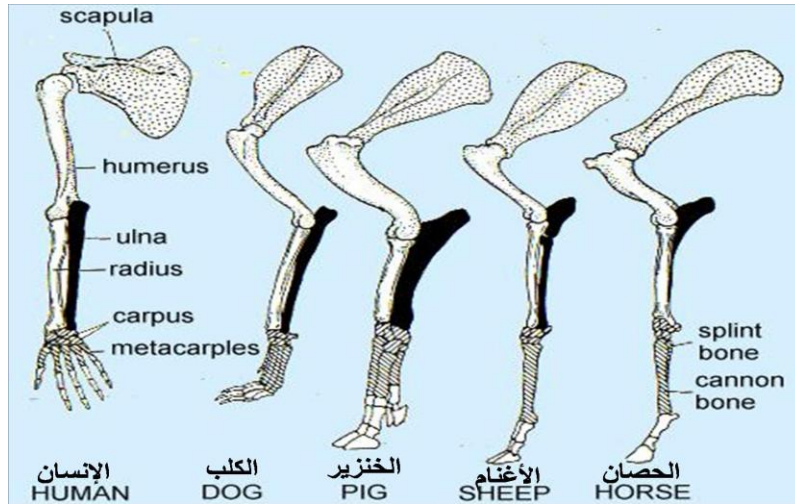


كيف يمكن للنبات المجرد من التمييز أن يبتكر الحيل بغير سابق تقدير ويصنع بدهاء مصائد للحشرات!.

وصف تشاندرا كراماسنغي الحقيقة بقوله: "تعرض دماغي لعملية غسيل.. كي أعتقد أن العلوم لا يمكن أن تتوافق مع أي نوع من أنواع الخلق المقصود..، (ولكني الآن) لا أستطيع أن أجد أية حجة عقلانية تستطيع الوقوف أمام وجهة النظر المؤمنة بالله..، الآن ندرك أن الإجابة المنطقية الوحيدة للحياة هي الخلق وليس الخط العشوائي غير المقصود"، إن انسجام كل حي مع بيئته وتكامل كل عضو مع مثيله وتناسب كل زوج مع نظيره هو عند النبيه شاهد عدل على الخلق والتقدير مهما كانت الكيفية؛ وهذا ما يعلنه القرآن بجلاء: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ الأعلى ١-٣، وقد جاء في فتاوى الأزهر (ج ٧ ص ٣٩٩): "ورد أن الله خلق الإنسان نوعاً مستقلاً لا بطريق النشوء والاشتقاق من نوع آخر؛ وإن كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الذي يدخل تحت قدرة الله تعالى، قال بعض العلماء: إنه لا يوجد في النصوص أن الله خلق الإنسان الأول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل على انفراد، فسيبيل ذلك التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين حتى يقوم الدليل القاطع عليه فنعتقد؛ ما دام أن الذي فعل ذلك كله هو الله تعالى، ثم إن النواميس المذكورة في مذهب داروين ظواهر واضحة في الكون، ولا حرج في اعتقادها؛ ما دام أن الله هو الذي خلقها ووجهها، فهي لا تحقق وجودها من نفسها: ﴿لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الأنعام ١٠٢، فهو خالق المادة والنواميس"، ولكن (ج ٧ ص ٤١٢): "قولهم أن المخلوقات خلقت عشوائياً بغير تدبير سابق وعلم محكم يردده قول الله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ القمر ٤٩".



تبلغ وحدة التصميم والتماثل بين الكائنات الحية أقصاها في المراحل الجنينية الأولى



وحدة التصميم والتماثل رغم بديع التنوع للأحياء شاهد عيان على وحدانية الصانع وقدرته.

والتَّكْيُف Adaptation يعني أن كُلَّ مُيسَّر لما خُلِقَ له؛ فهو مواعمة كل حي لبيئته وتناسب كل تركيب مع وظيفته؛ كتتنوع أشكال المناقير والمخالب بما يناسب بيئة التغذية، وكالوسائل الدفاعية في الأسماك البحرية، وتلون الحيوانات بألوان يبينها تخفيا من الأعداء ومثاله الحرباء، وكوجود حوافر للخليل لتلائم الجري السريع وخف للجمل ليمنع الغوص في الرمال، وكإحاطة أوراق نباتات الصحراء بطبقة عازلة تحافظ على الماء تجنباً للجفاف، والداروينية محاولة لتفسير الكيفية بتخيل تواجد كم هائل من الأشكال قبل تغير البيئة واستبقاء الانتخاب الطبيعي ما يوائم الظروف الجديدة وبقيّة الأشكال تبيد، وهو افتراض مطعون فيه لأن الظروف القديمة لن تبق على أشكال غير ملائمة حتى ينتخب منها الأصلح في الظروف الجديدة، والفوضى Chaos لا تصنع نظام Order، والتنوع مع التماثل يعارض الإلحاد Atheism، ولو كانت التغيرات عشوائية كما تفترض الداروينية؛ فلم كانت دانما في اتجاه الأصلح!، وكل كائن بلا استثناء متكيف مع بيئته وموجه لما يحافظ على بقائه؛ مما يقتضي مشيئة الصانع وسبق علمه وقدرته ورعايته للمخلوقات، فللبط غشاء للقدمين ينشأ منذ فقس البيض؛ وليس نتيجة لمحاولة العوم، ويسبق إعداد الضرع أثناء الحمل ليستقبل الوليد عند قدومه، وقبل الشتاء يسقط ورق النبات حفاظاً على الغذاء وتكثُر أجسام الدببة القطبية الدهون منعاً للتجمد، وكل الوجود مرتب في منظومات؛ كما هو جدول العناصر، وهو لا يعني بالضرورة أن العنصر الأعقد تطور من آخر أبسط، والخلية الجذعية الأم Stem cell غير متخصصة ويمكن أن ينشأ منها في نفس الوقت أي عضو، والبويضة الملقحة Zygote تتضاعف لتشكّل كل الأعضاء في نفس الوقت شاهدة كذلك بوحدة الأصل، وإذا أكدت الكشوف العلمية بيقين وجود تغيرات تدرجية على المدى الطويل في البنية الوراثية لتناسب الظروف البيئية المتجددة فهي مظهر لمشيئة الله تعالى وتقديره وقدرته وعلمه المحيط، وينبغي التمييز بين كيفية بدء الخلق وتطور أشكال الحياة كمبحث علمي وبين الداروينية كدعوة إلحادية تنتفع بثوب العلم، وإذا ثبتت صحة التطور كآلية لتفسير التماثل وتدرج التنوع فإن الإسلام لا يرفض التطور المُقدَّر الرشيد Rational directed evolution، ولا يمكن عند علماء الإسلام تعارض نص منسوب للوحي مع الواقع إلا إذا كان غير يقيني الثبوت أو الدلالة؛ أو كان التصور للواقع غير مطابق للحقيقة، والإسلام يدعو إلى النظر والعلم؛ ولا يجعل مجرد البحث غرضاً وإنما سبيلاً إلى المغزى، والقرآن الكريم يلح بالسؤال عن كيفية بدء الخلق بلا سابق مثال كاشفاً أن للماضي بصمات ولافتاً الانتباه إلى البداية حيث لا مهرب لمكابر سوى التسليم بالخلق والتقدير؛ قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ العنكبوت: ٢٠، وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الطور: ٣٥، فالقدرة الخلاقة المبدعة لا يعجزها أن تخلق كل حين أشكالاً وتنوعات لا يحصيها الخيال يوحدتها تماثل الإتقان ووحدة التصميم، ولتكن ما تكون الكيفية؛ فسبيل إدراكها هو التحقيق العلمي، لكن كيفية نشأة الإنسان ما زالت لغزاً Puzzle؛ وحتى لو ثبت الخلق في أطوار فهو بيئة على التوحيد وليس ذريعة للإلحاد، والقضية الجوهرية التي غفلت عنها الداروينية هي طلاقة قدرة الخالق وأن كيفية الخلق مشيئته، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يس: ٨١ و٨٢، وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ آل عمران: ٤٧، ويمكن تفسير تدرج التنوع مع وحدة التصميم Design بخلق كل نوع من الأحياء بانفراد؛ ويمكن تفسيره بالتطور المُقدَّر الرشيد، وفي الحاليتين لا بد من خالق جليل مقتدر عليم، أما التطور الذاتي فليس علماً وإنما مغالطة وتضليل أو تخمين بلا دليل؛ فكل حي مُقدَّر الكيان ينطق بالإيمان، وزعم الخلق الذاتي انتكاسة نحو الوثنية Paganism، والتماثل ووحدة التصميم مع بديع التنوع شاهد عيان على وحدانية الله تعالى وقدرته، وكل ما في الوجود يردد مع القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ طه: ٥٠.

References:

- Encyclopedia Britannica.
- Encarta Encyclopedia.
- Harun Yahya: The Evolution Impasse, If Darwin Had Known about DNA, The Skulls That Demolish Darwin, The Religion Of Darwinism, Signs Of God Design In Nature, Why Darwinism Is Incompatible With The Qur'an, The Perfect Design In The Universe Is Not By Chance, The Disasters Darwinism Brought To Humanity, The Collapse Of The Theory Of Evolution.